من الادب التركي

وكانت الذئاب تعوي

للكاتب التركي حسين جاهد

نقلها نقولا شكري

جرى ذلك في الغابة عند المربع الاخير من احدى ليالي الخريف اذ كانت الذئاب تعوي وكانت الاوراق الذاوية تنفصل عن الاشجار بتؤدة كما تتبدد احلام المرء اذا صحا من نشوته ، وتسقط على رؤوسنا بحفيف يشبه الزفرات القصيرة . فما أشبه نهاية احلامنا ؟

وكان ذلك الخريف حزيناً ، يبكي وينتحب في الظلام خلال الاغصان مع الحشرات الاخيرة التي كانت تأوي الى بعض الشقوق والثقوب فتموت هناك او تختفي تحت قشرة جافة تتأت من جذع الشجرة قليلاً

وكانت الذئاب تعوي

اما عواؤها فهو طوراً تهديد كأنهُ دوي عاصفة بعيدة ، وتارة شكوى القضوب العاجز ينتشر فوق الاشجار الساجية هنيهة ، ثم تسود تلك الظلمات الى سكونها ، وينقطع دوي الحشرات ، ويملك الليل لسانه فتتنفس بهدوء تنفس الخائف الحذر

النار تضطرم ولها زفير ، ولهبها المترجرج لم يكن ليُنير جذوع الاشجار المجاورة ، واضواؤها المضطربة تتفرس في الظلام الدامس المنتشر كأنها عينا طفل مروع يحدق في السواد البعيد ليسبر غوره ، وليس لهُ جرأة على التقدم خوفاً من الظلام ورهبة للمجهول . والى جانب النار يضطجع احد رفيقي في ردائه الواسع وينام نوماً هادئاً ، وهو رجل جبلي قوي لا يظهر منهُ في ذلك الرداء غير وجهه . والآخر شاب هزيل عصبي جلس ازائي واخذ يلقي في النار قطعاً من الخشب بدون انقطاع . وكان قد فرَّ من سجنه حديثاً وعدنا الى حياة المغامرات في الحراج والوديان والجبال ، نحن احياء ابداً وهاربون ابداً

طوق صديقي الشاب ركبتيه بذراعيه واخذ يلقي على النار نظرات حزينة من مقلة جامدة

كأنهُ يقرأ لغة اللهيب ، وكان يتابع حركات النار حتى اذا تحول الوقود رماداً تناول غيره والقاهُ في النار ، وعاد الى تطويق فخذيه بيديه وتأمل بعيني مفكر وبتنا صامتين . عوت الذئاب ايضاً عواءً شديداً عنيفاً حتى اعتقدنا ان ضوء نارنا يزعجها فهم حولنا مضطربة مضيقة حلقاتها

قال رفيقي : ما أقبح هذه الوحوش فأجبته : لقد خافت النار

قال : كلا . ولكن العالم ضيق حتى على الحيوانات فليكن ملعوناً

فشعرت ان الماً عميقاً يهيج في صدره ، وكان وجهه مصفراً تقع عليه اضواء النار فيصبح كأنهُ شبح من الاشباح . ولاح لنا ان الكلام متعذر فاستولى السكوت ثانية . ثم عاد صديقي الى الكلام بعد هنيهة فقال وهيئته تدل على انفعاله : أتعلم اني تعب اود ان أنام نوماً طويلاً عميقاً

فقلت لهُ : نم انت وانا اقوم على الحراسة

تبسم قائلاً بلهجة التوبيخ : ايها الخبيث . انك لم تفهم مرامي . اريد ان اقول لك نوماً طويلاً بدون يقظة . نوماً ابدياً

— ماذا أصابك ؟ — اني تعب . تعب جداً من الحياة . بعد السجن ؟ وفي الحرية ؟ لم يعد السجن وفي الحرية . اف لهذه الحرية !

— هل تعلم كيف فررت ؟ — اعلم انك حر وحسبي ذلك فلا أكترث للبقية

— ولكن البقية هي التي تهم ايها الرجل الساذج . انها هائلة . وهذه الحرية على ما ترى أضيق من السجن . أصغ اليَّ فسأقص عليك كيف نجوت من السجن ومتى وعيت كلامي فأصدر حكمك العادل وقل لي هل انا مجرم ام لا

وعوت الذئاب من جديد

هل سمعتها؟هذه الوحوش الضارية تقوم بجنازة حريتي وشكواها لا تتغير ابداً: العالم ضيق، ضيق، ضيق!

انك تعرف ان ولادتي كانت شؤماً على والدتي وان اللعنة لحقتني من المهد . أوقفت مرة لفراري من الجندية وكان عليهم ان يسوقوني بعد بضعة ايام مغلولاً الى مقر الحكومة لمحاكمتي . فيجب عليَّ ان افر اثناء الطريق واتخلص من الحراس الذين يرافقونني . وليس لي من سبيل آخر . ولكن كيف انجح ؟ هذا هو الفكر الذي ضعضع حواسي وجاشت لهُ نفسي كأنها عصفور في قفص يضطرب ويختلج . اما الحارس الذي كان معهوداً اليه في حراستي فهو صديقي وكان يبدي لي رقة وعطفاً فسألني بصوت منخفض : ألست نائماً ؟ — كلا

انك تفكر في والدتك دون شك . مسكينة تلك العجوز . ثم ابتعد عني وبعد برهة عاد اليَّ وكلمني عن والدته التي تعيش في بلاد نائية وما زالت منذ سنوات تتوقع عودته

قال : ولنكد الطالع ان اخي الاكبر في الجندية وقد دعي الى الخدمة هو اليوم في ساحة

القتال . اظن ان هذه الحرب المشؤومة لن تنتهي . كم قتل فيها حتى الآن ؟ ومن هي الاباء التي تأيتا عنها ؟ ومن يعلم ماذا يحدث ؟ ثم ان لاخي زوجة هي أم سكينة . امرأتان بدون رجال وبدون معونة ، فقيرتان لا تملكان ارضاً . الجميع عندنا فقراء . آه . ان فقرهم مدقع وليس لهم ارض زراعية . وهكذا كان يحدثني عن احواله وأحدثه عن والدي وكآبة سجني وقيودي، ويحدثني عن خدمته العسكرية وأخيه واسرته البعيدة . وختم حديثه قائلاً : الحياة قاسية يا اخي فاجبته : نعم قاسية جداً . ثم عاد الى تمشيه وعدت اعد خطواته ريثما يدركني النعاس .

ولكن الفكر الوحيد الذي كان يدور في خلدي هو : أيطلق علي النار اذا هربت ام لا ؟ وكنت اتشوق لمعرفة الحقيقة فحدثت عندئذ حادثة غير منتظرة اتت كجواب على سؤالي المتقدم . ففي احدى الليالي استولت الرهبة على السجن اذ اطلق الحراس طلقات عديدة فاجابهم الجنود في سائر الانحاء باطلاق بنادقهم بشدة وعنف وحصل عقب هذا الدوي ضجة ومحادثات وإعلانات واوامر مخيفة وقعقعة سلاح وصرير ابواب وعويلاً . وفي اليوم التالي كبلوا بالحديد ارجل معظم الموقوفين وكنت انا من جملتهم وعلمت ان اثنين من السجناء حاولا الفرار بعد ان نقبا سقف غرفتهما ولكن مشروعهما حبط

ولكن على الرغم من ذلك كنت افكر في الفرار ولا مندوحة عنه للخلاص . ولكن كيف ؟ هذا السؤال استغرق افكاري وبلبل خاطري وتمثل لي في الف شكل يباين بعضها بعضاً

وبينما انا افكر في كل هذا اقترب الحارس ثانية من بابي وسألني . ألم تنم ؟

كلا — لم أستطع ذلك فالحر شديد وقد أقلقتني هذه الاحلام المشؤومة . فتنهّد الحارس قائلاً بصوت متلجلج : الاحلام المشؤومة ... نم يا اخي نم ... آه . فلكن الحياة ملعونة .. أف .. !

قال ذلك وفي صوته رنة ألم غير عادية فعرفت انه حزين باك يشرق بدموعه فسألته : هل جاءتك انباء مشؤومة من اسرتك

— لقد قتل اخي .. كتبت اليّ امي بذلك .. ما أشد بؤسك ايتها العجوز ! نم يا اخي نم... ان الحياة مرة . . . ولم يستطع ان يتم حديثه لانه أجهش بالبكاء فابتعد عن بابي في الرواق مخطاه المنتظمة ذات الوقع الحاد . وكان يحمل على منكبيه مع سلاحه حزناً لا يوصف فتنبهت آلمي وشرعت افكر في حزن صديقي . انه يبكي ولكنني اذا هربت قتلني قبل ان يجف دموعه لان حراستي موكولة اليه وعليه ان يسهر كي لا يشتد صريف سلاسلي ، وليبقى السجن ضريح التأثرات والعواطف والآمال . وقطع الحديث على صديقي سقوط أوراق من الشجرة كان لها حفيف شديد . وفي تلك اللحظة مرّ بنا ذئبان يتقاتلان ويثبان فامسك صديقي بندقيته وسددها وأطلق النار . فدوى الوحش المصاب عواء أليماً وصرخ صراخاً مزعجاً ثم صمت فاستيقظ رفيقنا

النائم ووضع يده على بندقيته فقال له رفيقه : ثم لا تجزع فاني قتلت ذئباً . فقلت : لقد قتل الذئب فان عواءه كان حشرجة الاحتضار وذلك خير له . ألم أقل لك ان العالم ضيق ضيق على الجميع ثم ضحك ضحكاً غريباً وزج في النار وقوداً وأتم حديثه قائلاً : لم أستطع أن أجد وسيلة للفرار فتركت ذلك للاتفاق وفوضت الأمر للاقدار ولم أخطىء في ذلك ففي ذات يوم سلمني صديقي الجندي كتاباً ففضضته واذا هو مكتوب فيه : سيقودونك غداً فحاول ان تجلس لتستريح على ضفة النهر في الحرج

مزقت الورقة ولكن الكلمات رسخت في دماغي كأنما طبعت بحديد محمى ولم انقطع عن ترديدها . ولكن من كتبها ؟ كنت أجهله . لم يتضح لي سوى شيء واحد وهو ان رفاقي في الخارج يفكرون في انقاذي وان جلوسي الى ضفة النهر في الحرج قد يكون له في خلاصي شأن خطير

وأخيراً قادوني من سجني الى الموت او الى الحياة يخفرني جنديان وخواطري المظلمة لا تفارقني . وكنت أسحب سلاسلي بخطى ثقيلة واتفق أن احد حارسي كان صديقي ذلك الرجل الاصهب الشعر الحزين الطلعة والآخر رجل طويل القامة مكفهر الوجه تبرهن كل حركة من حركاته ولا سيما نظراته القاسية على قسوة ماعرفت الحنان فلم أحفل به واكتفيت عنه دون ان أبدي له ما أحس به نحوه . وكان صديقي يشغل خاطري وبدلاً من أن أسر باصطحابه إياي شعرت عند نظري اليه بقشعريرة خفية تعتريني . ولو أمكنني لناديته قائلاً : لا تصحبني يا صديقي ، أضرع اليك ألا تصحبني . وكنت آنئذ أشبه جواداً أجفلته كتلة مشعثة سدت الطريق فهو يقفز ليجتاز من جانبها ولكن فارسه يرغمه ان يجتاز عليها . لقد روعني حضور ذلك الصديق لكن ربما كان لي في صحبته فوائد جلى . فهو يعطف عليّ ولا يهوي على منكبي بحديد بندقيته اذا تعبت وتصرت في السير . على انه أيضاً كان فهو حارسي ويطلق عليّ النار اذا حاولت الفرار . . لقد يخطر لي كل هذا ولكنني برغمي وددت لو انه لم يكن من حافظي وأن يحل محله رجل مجهول لا أعرفه ولا بادلته حديثاً

وبعد أن سرنا كثيراً عدمت القوة فلم أستطع السير . وعندها سألني صديقي الجندي : هل تعبت ؟ فتنشت بسر قولي : نعم ان السير قد أنهك قواي وسكت لاني خشيت ان يفضحني صوتي المرتجف فقال وقد عرج من الطريق الى احدى الاشجار الباسقة الضخمة : فلنستريح قليلاً

ومما لا ريب فيه ان صديقي كان تعباً جداً فجثا بجانبي بينما كان الآخر يتمشى امامي طولاً وعرضاً وبندقيته على منكبه فألقيت الى ماحولي نظراً خفياً وحاولت ان اخرق بنظراتي الاعشاب الملتفة لعلي اقع على امارة اهتدي بها فلم ابصر شيئاً . ثم أرهفت سمعي لعلي اسمع حساً او ركزاً فلم اسمع شيئاً فقلت : لم يكن الكتاب الا خدعة او ان المشروع حبط

وكان الجندي القائم بالحراسة يتطلع تارة الى ما حوله ويحدق بي طوراً ويصيخ بسمعه هنيهة ثم يعود الى مشيته وبعد لحظة قال: فلنسر، حسبنا راحة وعلينا ان نبذل الجهد لنصل في الموعد المعين. فقال الآخر: ايه فلنسترح. وضطجع على العشب آمناً. وفي تلك اللحظة ومض برق من الغابة ودوى الرصاص فأبصرت الجندي الواقف يختلج ثم صرخ صرخة ورمى البندقية التي كان يمسكها بيده وانقلب كجذع خاوٍ فارتمت المضطجع بجانبي وأمسك بندقيته وحاول ان ينهض فاندفعت عليه بدافع لا اعرفه وقبضت على عنقه بيدي. انا فوقه وهو تحتي والتففنا كأننا أرقمان سامان يحاول كل منا ان يبلك الآخر. وعدت لا ابصر شيئاً. ولم أشعر في تلك اللحظة الا بشيء واحد وهو انهُ من الواجب عليّ ان اقتل الرجل الذي يخبط تحتي بي حياته الموت والمشقة والقضاء المشؤوم. وقد ضعف ساعدي عند سماع انينه وحشرجته غير اني كنت اعود الى قسي فأزيد في الضغط وانشب قاضباً في عنقه مخالب حديدية

قارب النزاع الهائل نهايته وضعفت حشرجة خصمي. ثم فقدت ساعداه القوة فألقاهما بجانبه وتدفق من فمه وانفه دم غزيز لزج وجحدت عيناه وظللت اضغط على عنقه حتى شعرت برجل يجذبني من يدي فنهضت مرتعداً وسمعت صوتاً يقول لي: دعهُ فانهُ قد مات. وتطلعت فرأيت رجلاً واقفاً فوقي وهو الذي ترصد حراسي خلف جذع شجرة وقتل الاول بقذيفة من بندقيته تأمله دون ان اعرفه فان ظلمات تراكمت في نفسي واظلمت عيناي فكنت ألهث ولا أفقه ما يجري ولم أبصر سوى الجثة الممتدة امام عيني. ولم أفهم كيف حدث كل ذلك. فقال منقذي: هلمَّ بنا. مالك واقف متحجر وليس لنا وقت نضيعهُ. انهض لننطلق الى الغابة وعلينا ان نزيح الجثتين من الطريق. فلبثت منهوك القوى غارقاً في الاحلام وشعرت كأني عدمت الحياة وانه ليس لي وجود بل تلاشيت وشاهدت منقذي يجر احدى الجثتين على التراب والاخرى من بعدها الى اعماق الحرج ثم عاد اليَّ وقال: هيا بنا ايها الوحش الخامل ما ابلدك!

فأجبته: اقتلني فلست اقوى على الحياة. وعندئذٍ أدخل يديه القويتين تحت ابطي ورفعني. وبعد قليل كنا في الغابة قريبين من الموضع الذي دفنا فيه الجثتين. فركعت بجانب جثة صديقي الجندي. لماذا؟ هذا ما لا اعرفه. وحسبت في تلك الحال انني لا استطيع مبارحتها

وطرق مسمعنا صوت جرس بعيد ثم استطعنا ان نرى من خلال الاشجار عربة يجرها اربعة من الجياد وفيها فتى وفتاة ضاحكان سعيدان يتجاذبان اطراف الحديث والفتاة تمس وجه الفتى بغصن اخضر فيقهقهان. وكان الحوذي ايضاً متهللاً يستحث جياده ويقرع بسوطه. ولم يرق لي مرأى الحياة وأفراحها تبلاً ما هاج بي من السخط والحنق آنئذٍ وشعرت انني قادر ان اخرج من مكمني وانقض عليهم فأهلكهم جميعاً وجيادهم المطهمة

ابتعدت العربة بسرعة واستولى الصمت على الغابة فتركنا وحيدين إزاء ضحايانا وجريمتنا. وكان صديقي قد كسر قيودي قبل ذلك ولكنني لم افكر في نزعها وأحسست كأنني مرتبط بالحتين — ولاسيما باحداها — فلن استطيع الفرار. وكنت احدق فيه وأفكر في تلك العجوز المسكينة التي تبكي ابنها الوحيد في بلدها النائي حيث الجميع اشقياء مكتئبون. انها تنتحب على ميت واحد وعليها الآن ان تضاعف عبراتها ولكنها لا تعلم شيئاً ولا تزال تجهل حادثته. وهذه العبرات.. وهذه الدماء كلها سفكت لأكون حراً... ! لاشك في ان امي ستبتهج بفراري اما الام الاخرى المجهولة فعليها ان تبكي. وقد وجب ان يقتل ابنها تحت سماء غريبة لكي احيى انا، ويسر قلب والدتي. فما هذا التناقض في الحياة! عندما ينبغي هلاك واحد فهل نهتم بمعرفته وعندما ينبغي لأم ان تذرف الدموع فلماذا يسألون من هي.. هذه الارض ضيقة جداً على الحرية.. وقد انقذتني الظلمات في الليل حيث حجبت عن عيني الجثتين. واستمر النهر في عجيجه جائشاً مزبداً منحدراً في المهواة ملاطماً الصخور بدون فترة لكي يكتسب شيئاً من الفسحة وشيئاً من الحرية التي لايستطيع نيلها الا بتدمير ضفتيه وطغيانه على الارض يحمل الدمار والموت. وكنت حيثما التفت أجد مشهداً واحداً مشؤوماً في الطبيعة: لابد من التدمير والقتل لاحراز الحرية. وذكرني رفيقي انه يجب علينا الرحيل وعندما تخلصت من سلاسلي شعرت ان حملي أثقل وأوجع مما كان وأنا مقيد مغلول

وكانت الذئاب تعوي كما تعوي اليوم

كنت حراً ولكنني لا أعلم ماذا اصنع بتلك الحرية المشؤومة وتراءى لي كأنني ضللت في الغابة زمناً طويلاً وسدرت في ظلمات الليل. الغابة والليل كلاهما ليس له ابتداء ولا انتهاء كلاهما اسود كالحياة، مملوء بالجنايات كالحياة

خشخش العشب الجاف ومرّ امامنا ارنب منهزم امام وحش ضار فتضجرت وقلت: المشهد ذاته. كل خليقة في العالم تنازع وتفترس خليقة اخرى

ثم سرت مترنحاً في الظلام فاصطدمت بالاشجار وكنت أسقط على الارض فأنهض لأسقط ثانية وما انفك النهر يدوي كهزيم الرعد، والظلمات تستقر على منكبي كأعباء باهظة، والذئاب وراءنا ما برحت تعوي. والآن يجب أن أسير وأتقدم في طريق الوجود الوعرة الشاقة فاني أصبحت حراً..

وصمت الرجل عندئذ وشرع يقلب الرماد بقطعة من الخشب ثم قطع الدمع عليه الكلام فشهق بالبكاء. خمدت النار ولم يبق منها غير الرماد، وخيمت الظلمات فوق رؤوسنا، وكانت الاشجار تتناجى هامسة فبقيت صامتاً لانني لم اجد كلمات أعزي بها رفيقي

وكانت الذئاب تعوي...